المدرسة الوضعيّة

اسم يُطلق على المذهب الوضعي الذي أسّسه **أوغست كونت** (1798-1857م) والحركة التي قام بها، فالوضعيّة بالمعنى العامّ هي الرأي القائل بأنه مادامت المعرفة الحقيقيّة كلّها مؤسّسة على الخبرة الحسّيّة ولا تتقدّم إلّا بالملاحظة والتجربة، فإنّ المحاولات التأمليّة أو الميتافيزيقيّة لاكتساب المعرفة عن طريق العقل الغير محدود بالخبرة، من الضروري أن يتخلّى عنها لصالح مناهج العلوم الخاصّة.

يجتمع الوضعيّون على أنّ عمل الفلسفة هو فهم المناهج التي تتقدّم بواسطتها العلوم، وليس السعي إلى معرفة العالم معرفة لا تستند إلى العلوم. ولقد يكون للفرنسي **بيكون** شرف البدء بالوضعيّة في كتابه (في المبادئ والأصول، 1623-1624م)، فعلى الفلاسفة أن يأخذوا حسبه مبادئ الأشياء كما هي موجودة في الواقع، معتمدين في ذلك على الإيمان بصدق التجارب مع الاعتراف بوجود حقائق أوّليّة دون أيّ تصوّر سابق. فصفة وضعيّ عنده تُطلق على الحقائق التي لا تُفسّر وعلى المذاهب التي تقوم عليها. وبسبب التأثّر ب**بيكون** أصبحت كلمة وضعي تُطلق على مناهج العلوم الطبيعيّة لاعتمادها على الملاحظة والتجربة، وهذا ما صرّح به **سان سيمون** بأنّ كلّ علم لا يسير السيرة ذاتها في الاعتماد على الملاحظة والتجربة عبارة عن علم ظنّي.

وأمّا وضعيّة **كونت** فكانت أكثر من مجرّد فلسفة علم ودراسة للتطوّر العقلي، حيث شكّلت جزءًا من التراث التجريبي في الفلسفة، وبخاصّة عند **دافيد هيوم** الذي برهن على أنّ المعرفة البشريّة الحقيقيّة تتعلّق كلّها بأمور الواقع أو بالمنطق والرياضيات. لكن الاستدلال المنطقي أو الرياضي لا يمكنه من تلقاء نفسه أن يخبرنا بشيء عن طبيعة العالم، لأنّ نتائجه محصورة في إطار ضيّق، في حين أنّ معرفة واقع العالم على خلاف ذلك [1]. من هنا نشأت

1- صلاح الدين شروخ: **مدخل في علم الاجتماع -للجامعيّين-**، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة-الجزائر، 2005م، ص151،152.

الوضعيّة المنطقيّة التي ترجع استحالة معرفة الإنسان لما يجاوز خبرته إلى منطق اللغة نفسه لا إلى أساس سيكولوجي.

إنّ الوضعيّ من الأشياء ما كان متحقّقا في عالم الحسّ والتجربة، وإن كانت أسبابه القصوى وقوانينه التي شرعها الله وفرضها على الطبيعة مجهولة لدينا. فالوضعيّ مرادف للحقيقيّ والتجريبيّ ومقابل للتأمّليّ والخياليّ والوهميّ، وللإشارة فإنّ كلمة الوضعيّة لا تخصّ **أوغست كونت**، فكما سبق فقد استُخدِمت من قبل **دافيد هيوم** و**سان سيمون** قبله، حيث كان **هيوم** رائدًا للمذهب الوضعي و**أوغست كونت** داعية إليه. [2]

وعمومًا يُعتبر **كونت** الأوّل في الحديث عن الفلسفة، حيث يرى أنّ لفظ الوضعيّ يدلّ على الحقيقيّ المقابل للوهميّ، والحالة الوضعيّة في قانون الحلات الثلاث عنده مقابلة للحالة اللّاهوتيّة والحالة الميتافيزيقيّة. والوضعيّ من الأشياء هو الثابت والصادق، فالأخبار الوضعيّة عند بعضهم تكون مطابقة للواقع، لذلك فإنّ النظريّة الوضعيّة إنّما تدلّ على أنّ المعرفة الصحيحة هي المعرفة المبنيّة على الواقع والتجربة، وأنّ العلوم التجريبيّة هي التي تُحقّق المثل الأعلى، وأنّ الفكر البشري لا يستطيع أن يتجنّب اللفظيّة والخطأ في العلم والفلسفة إلّا إذا اتّصل بالتجربة [3]. فالمدرسة الوضعيّة هي اتّجاه فكري يبني تفسير العلم على مصطلحات التجربة، حيث تستلهم الوضعيّة نقطة انطلاقها من العلوم الطبيعيّة من أجل إقامة التفكير على أساس موحّد.

وبالرجوع إلى **سان سيمون** (1760-1825م) الذي عاش في نظام إقطاعي وسليل أسرة أرستقراطيّة يحمل لقبًا اجتماعيًّا هو الكونت، كان ضابطًا برتبة ملازم أوّل لمّا كانت فرنسا تخوض حربًا ضدّ الانجليز في شمال القارّة الأمريكيّة، وقد نضج فكره خلال الثورة الفرنسيّة التي كانت بمثابة ثورة على النظام الاجتماعي والاقتصادي في أوروبا عامّة وفرنسا خاصّة، وثورة على النظام المعرفي التقليدي السائد في فرنسا وثورة على النظام السياسي الملكي. قام

2- محمد شفيق غربال: **الموسوعة العربية الموسّعة**، ط2، مؤسّسة الشعب، القاهرة-مصر، 1972م، ص1954.

3- جميل صلبيبا: **المعجم الفلسفي**، ج2، دار الكتاب، لبنان-بيروت، 1982م، ص578.

سان سيمون في مرحلة نضجه الفكريّ (1802–1816م) بكتابات في علم الإنسان مقترحا تحديد القواعد المنهجيّة لهذا العلم الاجتماعي، حيث كان اهتمامه الرئيسي منصبًّا على ربط هذه المعرفة الجديدة بالتغيّرات الاجتماعيّة وبالتركيز على العلاقات التي يُقيمها هذا العلم بين النظريّة والممارسة السياسيّة، وهو يشير بذلك إلى أنّ ادخال الوقائع الأخلاقيّة في ميدان المعرفة هو تكرار السيرة العامّة من الظرفيّ إلى الوضعيّ، ومعناه بالنسبة إلى علوم الإنسان إعادة إنتاج الصيرورة نفسها التي سبق لها أن كانت صيرورة العلوم الطبيعيّة. (4)

ويقارن **سان سيمون** بين العلوم التي مرّت من الحدسي إلى الوضعي، مبيّنًا أنّ كافّة العلوم بدأت بالتكوّن على أساس حدسيّ، لكنّ نظام الأمور هو الذي جعل منها علومًا وضعيّة. فعلم الفلك كان في الأصل تنجيمًا، والفيزيولوجيا التي غاصت طويلًا في بحر الدجل، تقوم الآن على أساس قواعد تخضع للملاحظة وللنقاش، وكذا الأمر بالنسبة إلى علم النفس الذي تخلّص من الأحكام الدينيّة المسبقة.

لقد بدأت المقاربة الوضعيّة في مرحلة الفكر الموسوعي الذي عرفه في القرن الثامن عشر واتّخذت عند **سان سيمون** طابعًا تطبيقيًّا عمليًّا وليس نظريًّا مثلما كان سائدًا في المرحلة التجريديّة أي العلم النظريّ المجرّد، حيث طوّر الفكر الموسوعي آليّات تحليل جديدة تقوم على الترابط بين المعرفة والواقع الإنسانيّ، وبذلك يمثّل هذا الفكر مرجعيّة **سان سيمون**.

- **الوضعيّة والبحث العلمي الاجتماعي**

لقد أُطلقت العديد من التسميات على المذهب الوضعيّ، مثل الاتّجاه الطبيعيّ، الاتّجاه الامبريقيّ والاتّجاه السلوكيّ، فضلًا عن إطلاق كلمة العلم ذاتها على هذا المذهب، وعندما يُنسب إليه لفظ المذهب فإنّ المقصود بذلك اعتباره بمثابة الابستيمولوجيا الفلسفيّة التي تحظى بالنفوذ الفكريّ في نطاق العلوم الاجتماعيّة وبدرجات متفاوتة. ومن دعاوي هذا المذهب الوضعيّ أنّ الحقيقة تنحصر في كلّ ما هو متاح أمام إدراك الحواسّ، وأنّ العلوم الطبيعيّة

4- مصطفى بوجلال: **مرجع سابق**، ص55.

والاجتماعيّة تشترك في أساس منطقيّ ومنهجيّ واحد. وبذلك تعترف الوضعيّة بالشكل الامبريقي الذي تمثّله العلوم والشكل المنطقي الذي يعكسه المنطق وتشاركه الرياضيّات في ذلك. (5)

إنّ الثورة الفرنسيّة ومؤثّراتها السياسيّة والاجتماعيّة التي عاشها **أوغست كونت** قد حفّزته على وضع الأسس النظاميّة للمجتمع الجديد الذي يجب أن يتكيّف مع روح وتطلّعات العصر ونفسيّة الشعب الفرنسيّ وطبيعة مشكلات المجتمع والمبادئ الثوريّة والتحوّليّة التي تسيطر عليه وترسم أُطُر اتّجاهاته المادّيّة والمثاليّة. لهذا وضع **كونت** قوانينًا اجتماعيّة وأخلاقيّة وشرعيّة جديدة يمكن أن يسير عليها المجتمع الفرنسيّ، ومثل هذه القوانين اشتقّها من عدّة علوم أهمّها السياسة والاقتصاد والقانون وعلم النفس. وبالتالي شكّلت هذه القوانين الصرح المنهجي والموضوعي للعلم الجديد والذي يجب أن تتوفّر فيه الشروط التالية:

- أن تكون المعلومات والحقائق التي يتكوّن منها علم الاجتماع متكاملة ومتناسقة وعلى درجة كبيرة من الدقّة والموضوعيّة.
- على العلم الجديد التفتيش عن طرق جديدة يمكن اعتمادها في البحث العلمي الذي يُساعد على تثبيت وتطوير نظريّات العلم وقوانينه الشموليّة.
- أن يكون هذا العلم الجديد قادرًا على شرح وتوضيح نظريّات وقوانين الأديان السماويّة والمُثل والأخلاق والقيم.
- أن تكون النظريّات الاجتماعيّة قادرة على التغيّر تبعًا لتغيير الظروف والظواهر الاجتماعيّة والسلوكيّة. وهذا يعني ضرورة تميّز النظريّات الاجتماعيّة بالنسبيّة والمرونة وابتعادها عن صفة التعصّب والتحيّز. (6)

ولقد استعان **كونت** في نظريّته الاجتماعية بالعديد من المصطلحات العلميّة مثل السكون أو الثبات الاجتماعي والديناميكيّة أو التغيّر الاجتماعي. ويعني **كونت** بالسكون الاجتماعي

5- سامية محمد جابر: **منهجيّات البحث الاجتماعي والإعلام**، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية-مصر، 2000م، ص128.

6- إحسان محمد الحسن، عدنان سليمان الأحمد: **مرجع سابق**، ص124.

تلك العلاقة بين الظواهر والعمليّات الاجتماعيّة وتكامل بعضها مع البعض خلال نقطة زمنيّة محدّدة، وتداخل المؤسّسات وأداء كلّ منها وظائفه المحدّدة. حيث يتجسّد هذا التكامل في اجتماعها وتظافرها من أجل خدمة الأفراد والجماعات لتحقيق التماسك والترابط، ممّا يجعل المجتمع موحّدًا وقويًّا وقادرًا على تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة. ويعني **كونت** بالديناميكيّة أو التغيّر الاجتماعي، تغيّر مؤسّسات المجتمع بمرور الزمن نتيجة تغيّرات تحدث في بعضها أو جميعها، بسبب عوامل طبيعيّة أو إنسانيّة مقصودة أو غير مقصودة. فتغيّر مؤسّسة معيّنة يؤثّر بالضرورة على بقيّة المؤسّسات الأخرى أين يتبدّل البناء الاجتماعي ويمرّ المجتمع من مرحلة حضاريّة إلى مرحلة أخرى تتّسم بالتقدّم والنموّ والفاعليّة، مثل تقدّم المجتمع من مرحلة التفكير الفلسفي إلى مرحلة التفكير العلميّ الواقعيّ.

كما يرى **كونت** بأنّ التضامن الاجتماعيّ لا يمكن أن يتحقّق بصورة كاملة، إلّا إذا وجّه المسؤولون عنايتهم واهتمامهم بإصلاح نظام التربية والتعليم ونظام الأسرة والنظام السياسيّ. فالتعليم يضبط الغرائز الفطريّة ويهيمن عليها ويحوّل طاقاتها نحو منافذ تخدم الحضارة والمجتمع، كما أنّه يهذّب المشاعر الإنسانيّة ويسمو بمدركات الفرد وتصوّراته وأحكامه، ممّا يدفع الإنسان على تقوية علاقاته الاجتماعيّة بالآخرين. (7)

- **قصور المدرسة الوضعيّة**

يظهر القصور أو الضعف عند تطبيق المذهب الوضعي على ما يتعلّق بالحياة الاجتماعيّة الإنسانيّة، لذلك كان على المذهب الوضعي أن يتجاوز مشكلة التمييز بين ما هو إنسانيّ وما هو مادّي، ذلك التمييز الذي عبّرت عنه الآراء بطرق جدّ متنوّعة ومختلفة، وهو يحتلّ أهمّيّة كبرى في تاريخ الفكر بما ينطوي عليه من مضامين قانونيّة ودينيّة وأخلاقيّة وسياسيّة. كما أنّ هذا التمييز يدّعي أنّ كلّ ما هو إنسانيّ وروحيّ وعقليّ أو ذهنيّ، إنّما يمثّل نظامًا للظواهر يختلف عن نظام الظاهرة المادّيّة، ولا يمكن أن يُفهم بواسطة الطرق الملائمة لذلك النظام الآخر. لقد لجأ بعض الوضعيّين إلى رفض هذا التراث رفضًا قاطعًا بواسطة

7- Georges Cantecor : **Le Positivisme**, Hachette Livre – BNF, France, 2013, p35.

اختزال كلّ ما هو إنسانيّ إلى مجموعة من المظاهر ذات الطبيعة المادّيّة، وفي هذه الحالة تتحوّل الحياة الإنسانيّة إلى فرع من الكيمياء أو البيولوجيا أو إلى علم النفس السلوكي. بينما لجأ آخرون إلى بناء أنساق نظريّة كبرى تشتمل على علم الحياة، علم النفس، علم المناخ والجغرافيا وعلم الاجتماع، اعتمادًا على فكرة مفادها أنّه طالما كانت تلك العلوم وغيرها جزءًا من الحياة الإنسانيّة، فهي تعدّ جميعًا ذات أهميّة في فهم الحياة في مُجملها، وهناك طائفة أخرى ذهبت إلى ادّعاء أنّ الظواهر الإنسانيّة والاجتماعيّة هي ظواهر واقعيّة مثلها في ذلك مثل الظواهر المادّيّة.

إنّ الفكرة الخالصة للمجتمع تكشف عن وجود نُظُم مُطردة تتميّز بواقعيّتها وقابليّتها للتنبّؤ، على الرغم من أنّ المجتمع يشتمل على أفراد يتميّزون في ما بينهم بالمفارقة والتفرّديّة. وعمومًا كانت ثمّة أفكار يسّرت فهم المجتمع وإدراكه بوصفه يمثّل مستوًى للواقع الذي يتميّز بأنّه وحدة قائمة بذاتها. فالوضعيّة اهتمّت ببعض جوانب العلم الطبيعيّ على حساب جوانب أخرى، فالعلم يتميّز بأنّه امبريقي لكنّه أيضا نظريّ إلى حدّ بعيد، وليست القوانين مجرّد تعميمات امبريقيّة سببيّة، بل هي قضايا مترابطة ترابطًا عقليًّا.

وممّا سبق نخلص إلى أنّ إضافات **أوغست كونت** إلى علم الاجتماع كانت قليلة، على الرغم من وضعه مصطلح "سوسيولوجي"، فقد تصوّر البشريّة كلّها شيئًا هلاميًّا، فلم يراعِ أوجه الالتقاء بين المراحل الاجتماعيّة المتشابهة التي تفضي إلى معرفة القوانين العامّة للتطوّر الاجتماعي، لذلك يعتبر فكره مثاليًّا سابقًا للواقع ومحرّكًا له، والمثاليّة عنده تعني وجهة تفسيريّة، وهو ما يتعارض مع كونه وضعيًّا، فالمجتمع ليس كلّه تضامنًا وتماسكًا، وإنّما فيه صراع وتناقض. كما أنّ فَزَعَ **كونت** من التغيّرات والثورات، جعل من علم الاجتماع أداة محافظة وتبرير للنظام القائم. كما أنّه تحدّث عن منهج الملاحظة والتجربة ولم يستخدمه. [8]

8- عبد الباسط عبد المعطي: **البحث الاجتماعي، مرجع سابق**، ص95،96.